الفصل الأول

شهر على الحدود.. بين فرنسا وألمانيا!

obeikandl.com

الأولى

ستراسبورج
الحائرة بين وطنين!

قبل أن أغادر القاهرة فى طريقى إليها قالوا لى: ذات جو متقلب.. وعندما وصلتها.. وأمضيت فيها شهرا كاملا.. عرفت ماذا تعنى بالضبط كلمة «متقلب» !! غادرت القاهرة فى التاسع والعشرين من مايو 2007 إلى «ستراسبورج».. أمضيت شهرا كاملا فى مدينة ذات مذاق متفرد.. مدينة تحكى جدران منازلها المميزة.. والبشر الذين يعيشون فيها من جنسيات وأعراق مختلفة.. الكثير من الحكايات عن.. الاستعمار والعولمة والتحرر.. التحضر والصراع القديم بين ألمانيا وفرنسا.. كاتدرائيتها الشهيرة ومقر الاتحاد الأوروبى والمحكمة الدولية لحقوق الإنسان.. الخضرة والنهر ذو الأذرع الخمسة الذى يحزم المدينة.. مقاهيها التى تجمع ألوان الطيف.. و «أسمهان» ورائعتها «ليالى الأنس فى فيينا» و «قهوة».. شاهد على عصر التحولات الكبرى فى العالم.. وفى هذه البقعة الخضراء..

obeikandi.com

1

وصلت مطار فرانكفورت – للمرة الثالثة – فى الحادية عشرة صباحا.. خرجت أتجول فى شوارعها للمرة الأولى.. مدينة صماء.. بلا مشاعر.. ركبت الأتوبيس الذى يقلنى إلى «ستراسبورج».. ساعتين ونصف الساعة.. يشق الغابات والجبال.. ويحمل بشرا بكل الألوان.. على المقعد المجاور كانت تجلس فتاة.. لم تكتف عن استراق النظر إلىّ بين برهة وأخرى.. ووصلنا إلى المدينة التى تقع فى شرق فرنسا.. مبتعدة 400 كيلو مترا عن العاصمة الفرنسية باريس.. تقع على نهر «إيل» أحد أفرع نهر «الراين» العظيم.. لذا فهى ميناء ومركز تجارى مهم.. كان أمامى يومين لبدء كورس مدته ثلاثة أسابيع فى المعهد الدولى لحقوق الإنسان.. لذا فقد كان علىّ ترتيب الوقت جيدا لاكتشاف المدينة..

عندما توقف الأتوبيس فى محطته الأخيرة فى قلب المدينة.. كانت فى انتظارى «د.جابرييل تون» حاملة لافتة فريدريش نومان.. المنظمة التى قامت بترشيحى لهذا الكورس.. كانت جابرييل مديرة برنامج الحوار السياسى بالمنظمة الألمانية العريقة.. وكانت المنظمة تقوم بترشيح عشرة ناشطين حقوقيين أو عاملين بمنظمات للمجتمع المدنى سنويا من دول عدة.. إنضمت إلينا فتاة الجوار فى الأتوبيس.. وقامت «جابرييل بتعريفنا.. «إيمان» من مصر.. «رونى» من إسرائيل!!

obeikandl.com

2

«ستراسبورج» مدينة قديمة.. مازالت تحتفظ بالكثير من مبانى القرون الوسطى.. فالكاتدرائية القوطية بساعتها الكبيرة، ونافذتها الوردية الشهيرة، هي من أجمل كاتدرائيات أوروبا.. ترتفع قمتها إلى 142مترا.. أما جامعتها فقد تأسست عام 1538.. «ستراسبورج» مدينة موعودة بالألم منذ القدم.. موقعها على الحدود الألمانية الفرنسية.. كان سر نكبتها أو قل نكباتها التى منيت بها عبر العصور.. فكانت ضحية للحرب – بأبنيتها ومواطنيها – سنوات عديدة.. لا يعرف الكثيرون أنها كانت مدينة ألمانية حتى عام 1681.. دمرت بالكامل أثناء حرب بين ألمانيا وفرنسا.. ثم دخلت ضمن حدود الأخيرة.. وانتهت الحرب بين البلدين عام 1870 بتنازل فرنسا عن «ستراسبورج» لألمانيا.. ثم أعيد بناؤها مرة أخرى.. عائدة بعد معاهدة فرساى عام 1919 إلى فرنسا.. وكان هذا هو الاستقرار الأخير لها.. حتى عندما احتلتها القوات الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية فى الفترة من 1939 وحتى 1945.. والتى انتهت بتدميرها بالكامل مرة أخرى.. وبعدها بسنوات أربع صارت «ستراسبورج» مقرا للبرلمان الأوروبى منذ عام 1949.. وبين الدمار والبناء.. تبقى فلسفة الرغبة فى الحياة والاستمرار.. والرغبة فى الحوار فى ذات الوقت .. فى مدينة ليست فرنسية الملامح.. تحافظ على معمارها القوطى.. مختلطا برائحة كوكتيل غريب من البشر.. من كل مكان فى العالم.. فيشكلون 704 ألف إنسان.. يتنفسون هواء الحرية فى مدينة ليبرالية بحق.. وعادت «أسمهان» بليالى أنسها تلح على خاطرى مرة أخرى.. فالذى يطأ بقدمه هذه الأرض للمرة الأولى..

لا يستطيع الفكاك بسهولة من سيطرة طعم الحرب العالمية حتى ولو لم يكن قد شهدها!!

3

طعم تلك الحرب يدفع بطيف أسمهان طوال الوقت إلى عمق المشهد.. فهى الفنانة العربية الوحيدة.. التى رويت حكايات عن تعاونها مع جهتين متحاربتين فى ذات الوقت.. الحلفاء والمحور إبان الحرب العالمية الثانية.. وبينما لا نملك على هذا سوى الحكى المتواتر.. نجدنا نسير وراء خيوط هذا الحكى.. ففى عام 1941 ورد أنها التقت للمرة الأولى مع أحد أفراد المخابرات البريطانية.. حيث تم الاتفاق على أن تساعد أسمهان بريطانيا والحلفاء فى مواجهة القوات الفرنسية وألمانية النازية.. متدخلة لإقناع زعماء جبل الدروز بعدم التعرض لزحف الجيوش البريطانية والفرنسية.. وهو ما يفسر عودتها لزوجها الأسبق الأمير حسن.. بوساطة البريطانيين.. فعادت أميرة مرة أخرى.. وقد نشرت جريدة «الحديث» البيروتية.. فى عددها الصادر يوم الإثنين 29 سبتمبر 1941.. أن الجنرال «إدوارد سبيرز» ممثل بريطانيا فى لبنان.. قد اعترف حينها بأنه يتعامل معها لقاء أموال وفيرة دفعت نظرا لخدمات أدتها لبلاده.. لكن العلاقة قد قطعت لأنها كانت كثيرة الكلام!! ويقال أن المخابرات البريطانية قد قطعت عنها المال.. لتيقنهم من أنها تعمل لصالح فرنسا «ديجول».. وعندما توفيت أسمهان صباح الجمعة 14 يوليو 1944.. أشارت أصابع الاتهام إلى المخابرات البريطانية.. فقد كان الحادث مريبا.. كانت فى طريقها إلى منطقة رأس البر بدمياط.. ترافقها صديقتها و

obeikandl.com

مديرة أعمالها مارى قلادة.. وفى الطريق فقد السائق السيطرة على السيارة.. فانحرفت وسقطت فى إحدى الترع.. فلقيت وصديقتها مصرعهما.. بينما خرج السائق دون أذى.. ثم لم يلبث أن اختفى!!

4

عندما دقت الساعة الثامنة والنصف صباحا.. فى إحدى قاعات جامعة «روبير شومان».. كان أكثر من 250 شخص من كل مكان فى العالم – تقريبا – يقفون دقيقة صمتا تحية لرينيه كازان المناضل الفرنسى.. مؤسس المعهد الدولى لحقوق الإنسان – منذ 40 عاما –.. كانت بداية فاعليات الدورة السنوية التى تحمل رقم 38 للمعهد فى مدينة «ستراسبورج».. «رينيه كازان» أحد أشهر الذين عملوا على ملف الحقوق البشرية فى العالم.. دافعا ضريبة باهظة لذلك من حريته.. خلف القضبان أحيانا أو مبعدا خارج وطنه أحيانا أخرى.. وأحد الذين شاركوا فى صياغة الورقة التمهيدية للإعلان العالمى لحقوق الإنسان.. وفى تلك المدينة الليبرالية.. كان طبيعيا أن يتجاهل «كلارك باتلر» مدير معهد حقوق الإنسان بجامعة بوردو.. حضارات بعينها شاركت فى الصياغة الأولى لفكرة حقوق الإنسان فى العصور القديمة.. ويجزم بغربية الفكرة من الأساس.. كما كان طبيعيا أيضا أن يسحق فكرته المغربى المراكشى «العربى منصورى».. متحدثا عن عالمية الفكرة.. وإسهامات حضارات غير متقاربة جغرافيا فيها منذ أمد بعيد.. الحضارة المصرية القديمة.. والهندية والصينية والعربية والقبطية.. تحت مظلة اتفاق عالمى لا خلاف عليه هو أن: الحقوق الاجتماعية محكومة بتأييد أو اعتراض المجتمع.. والقانونية محكومة بقوة

العقوبة.. والأخلاقية محكومة بالضمير.. «العربى منصورى» حقوقى مغربى يرأس منظمة مجتمع مدنى فى مراكش.. وطوال شهر فى «ستراسبورج» كان اسمه الحركى «شارلى».. فقد كان الرجل الوحيد فى مجموعة من 9 مشاركين كلهن نساء.. فأطلقن عليه «شارلى» كما فى المسلسل الشهير «ملائكة شارلى»!!

5

ثمانية نساء من أعمار مختلفة.. تبدأ من الخامسة والعشرين.. وتنتهى بالثانية والخمسين.. و«شارلى».. جئن من: الصين والفلبين وباكستان وسلوفينيا والأرجنتين وإسرائيل وجورجيا ومصر.. ومرافقتنا د. جابرييل من ألمانيا.. كان «العربى منصورى» يتحدث العربية والأمازيغية والفرنسية.. وكان معظمهن يتحدثن الإنجليزية وقليل من الفرنسية.. لكن خيوط الحوار بينه وبينهن جميعا امتدت منذ اليوم الأول.. وكانت أسمهان مرة أخرى فى كثير من الأحيان.. موضوع الحوار وخط التماس.. ففى مقهى «الأوبزرفاتور».. أى المراقب.. الذى كان يواجه الفندق الصغير.. حيث مقر إقامتنا جميعا.. كانت الجلسات المسائية اليومية.. وكانت أغنية أسمهان «قهوة» قاسما مشتركا فى بداية كل ليلة.. المقهى صاحبه تركى.. ويديره تونسى فرنسى.. ومرتادوه عرب من منطقة المغرب العربى.. تعلو الأغنيات القديمة لكل نجوم الطرب العربى.. أم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الوهاب وعبد الحليم وفيروز.. ولكنه دائما ما يبدأ فى فترة المساء.. فى التاسعة بأغنيات أسمهان.. لذا فقد كانت دائما وطوال المدة التى قضيتها فى «ستراسبورج» حاضرة.. وكنت أقوم أحيانا بترجمة الأغنيات للرفيقات السبعة.. وأحيانا يقوم «منصورى» كما كنت أناديه..

وفى المقهى كانت تدور الكثير من الأحاديث.. حول الزواج فى المنطقة العربية.. وحرية التعبير.. وأوجه الشبه بين مناطق فى العالم قد تبتعد عن بعضها جغرافيا.. لكنها تقترب فى الكثير من تفاصيل البشر.. ولدهشتى فقد اكتشفت أن الكثير من مفردات اللغة العربية المنطوقة.. هى نفسها فى جورجيا.. وقد ظلت «تاتولى» الجورجية طوال الشهر.. تقوم بتجميع كل ما يخطر لها من مفردات واحدة بين اللغتين.. وفى الليل الذى كان يبدأ فى «ستراسبورج» بعد التاسعة.. فنهارها طويل جدا.. كنا نلتقى أحيانا بالعابرين على المقهى من دارسى معهد حقوق الإنسان.. بعضهم عرب وبعضهم من جنسيات مختلفة.. ومعظمهم كان يتوقف أمام المقهى للاستماع لأسمهان..

6

على ربوة مرتفعة فى قلب «ستراسبوج».. تقبع الكاتدرائية القوطية.. التى تهدمت بالكامل فى القرن السابع عشر مع دمار المدينة ثم أعيد بناؤها.. تمثل مركز البشر كل البشر ليلا.. تتوسط ميدانا واسعا.. وتحيطها بشكل دائرى بعض المقاهى.. والمحال التى تبيع التذكارات.. وطوال الصيف تتألق فى عرض ليلى مبهر.. فتنطفىء كل الأنوار فى المناطق المحيطة.. وتضاء فقط الكاتدرائية بكل الألوان.. كما فى الصوت والضوء فى الأقصر والأهرامات فى مصر.. وتصمت كل الأشياء إلا من غنائية أوركسترالية تحكى قصة الكاتدرائية منذ نشأتها.. وبقائها فى مواجهة موجات من الهدم والتدمير.. وعلى مدار ساعتين هى مدة العرض.. يفترش الحضور الأرض حول الكاتدرائية.. مسجلين اللحظة المبهرة بكاميرات الفوتوغرافيا والفيديو.. فى وقت العرض تفرغ الشوارع

obeikandl.com

من البشر.. وبعد انتهائه ينطلق المترجلون.. ومرتادو الدراجات بأعداد هائلة نزولا إلى شوارع المدينة الهادئة.. فمدينة المنتجات الكيماوية والجلود والورق والمنسوجات.. تحترم الدراجات احتراما جما.. تجوب شوارعها 130 ألف دراجة.. عبر شبكة طرق طولها 430 كيلو مترا مخصصة لهذا.. ومناطق فى وسط المدينة لا تزيد سرعة السيارات فيها على 30 كيلو مترا فى الساعة.. مواقف ومواقع للتأجير.. والحماية من السرقة.. تجتاز الحدود مع ألمانيا.. ذهابا وعودة.. ويسمح باصطحابها فى الترام..

7

ترام «ستراسبورج» الضارب بجذوره فى تاريخ المدينة منذ عام 1878 دخل فى أطوار عدة من التحديث والتجديد.. وهو أمر لا يكف عمدة المدينة وقتها – فابيان كيلر – عن الإشارة إليه.. ترام «ستراسبورج» الذى يجوب أنحائها حتى الحادية عشرة مساء.. تذكرته تدفعها مرة واحدة وتستخدمها طوال اليوم.. وتذكرته صالحة للاستخدام فى أتوبيس المدينة أيضا.. ومحطاته ملاذ للذين لا يحملون مظلة فى مناخ مدينة تمر بها الفصول الأربعة كاملة على مدار اليوم.. تخرج والجو صيفى مشمس صباحا.. ثم لا تلبث السماء أن ترعد وتبرق وتهطل الأمطار.. وتصبح درجة الحراة 10 درجات مئوية فى يونيو..

الترام وسيلتنا لدخول قلب المدينة.. الوصول إلى الأسواق ومقر الكاتدرائية.. أما فيما عدا ذلك.. فالسير هو الوسيلة المفضلة للتحرك عبر شوارع مخضرة.. بفعل مساحات الحدائق الواسعة.. ووسط بنايات تنتمى للقرن الخامس عشر.. السير لا يعنى التجول داخل المدينة.. بل يعنى أيضا

obeikandl.com

عبور الحدود إلى ألمانيا.. للوصول إلى مدينة «كيل».. التى تختلف فى كل التفاصيل عن «ستراسبورج».. ما يجمعهما شيىء واحد.. مزيج البشر.. ففى كلا المدينتين تجد مطاعم الشرق الأوسط.. ووجوه شرق أوسطية.. أطعمة تركية وكردية وإيرانية.. وتجد لافتة متكررة على كل تلك المحلات بالعربية والحروف اللاتينية «طعام حلال».. وتستمع لموسيقى شرقية بلغات هذه البلدان.. وطوال الوقت.. تلمح فى المدينة الخيط الرفيع الذى يربط الوطنين فرنسا وألمانيا.. وفى» ستراسبورج» كان الرابط الأكبر لدول القارة كلها.. الاتحاد الأوروبى.. بعلمه الأزرق ذو النجوم المتناثرة فى شكل دائرة.. والمحكمة الدولية لحقوق الإنسان.. تلك التى فتحت بابا واسعا على حماية حقوق الأفراد فى مختلف دول العالم..

8

المحكمة كانت تنظر إحدى القضايا منذ العام 2002.. وشهدنا جميعا بعض جلساتها.. كان المتهم فيها «خالد بن سعيد» نائب القنصل التونسى فى «ستراسبورج».. أمام محكمتها الجنائية.. كان متهما بارتكاب أعمال تعذيب ضد مواطنة تونسية عام 1997.. وكان وقتها رئيسا لشرطة نقطة «جندوبة» بالتونس.. بدأ التحقيق معه بتقديم المدعية شكوى جنائية لاتهامه.. وفى هذا العام 2002 سارعت الفيدرالية الدولية لحقوق الإنسان ورابطة حقوق الإنسان الفرنسية بالتدخل فى التحقيقات بصفتهما منظمات مجتمع مدنى.. بدأت الإجراءات.. وصدرت ضده مذكرة اعتقال دولية فى فبراير 2002.. لم تنفذها السلطات التونسية.. وهنا غادر المدعى عليه الأراضى الفرنسية.. عائدا إلى بلاده.. وتلك كانت القضية الثانية من نوعها.. والتى تعتبر تطبيقا

لآليات السلطة القضائية الدولية.. وعندما سألنا عن الأولى قالوا: كانت لرائد موريتانى سابق صدر ضده حكما بالحبس 10 سنوات بعد إدانته بأعمال تعذيب أيضا.. تلك الآليات أعطت للمحاكم المحلية الحق فى اللحاق بالمتهمين فى الجرائم الخطرة.. أيا كانت جنسياتهم أو ضحاياهم.. مستندة إلى اتفاقية مناهضة التعذيب التى تبنتها فرنسا فى 10 ديسمبر 1948.. فرنسا راعية الحرية وحقوق الإنسان.. المدهش أنه فى هذا الوقت تقريبا.. كانت فرنسا قد أبادت ما يزيد على 40 ألف مواطن جزائرى فى ليلة واحدة فى إحدى القرى.. حقا وطن للحرية!! وكان أحد المتابعين باهتمام لهذه القضايا.. رغم أنه جاء فى مهمة مع الاتحاد الأوروبى.. «عمر» القادم من تركيا.. الدولة العثمانية القديمة.. «عمر» كان فى الأربعين من عمره.. إنضم لقافلة النساء نزيلا فى نفس الفندق لمدة أسبوع.. فكانت الكثير من الأحاديث.. والتجوال عبر طرقات «ستراسبورج».. أهم ما فى تلك الأحاديث.. إنها كانت عنوانا على وحدة تفاصيل البشر.. ليس فى الشرق الأوسط فقط.. بل فى الكثير من بقاع العالم!

9

أما الشرق أوسطيين فإنهم يحتفظون بسمات خاصة جدا.. عاطفيون جدا تجاه الآخرين حتى الذين لا يعرفونهم.. سريعو بناء العلاقات مع البشر والائتناس بهم.. سريعو الحديث عن حياتهم الخاصة..

أصبت بنوبة برد شديدة تحت وطأة التقلب القاسى فى المناخ.. لزمت الفراش لثلاثة أيام.. فكان «عمر» التركى أول الزائرين.. محمل بكيسى برتقال وتفاح!! طقس مصرى خالص.. البرتقال لزيارة المرضى.. وكانت غرفتى

مستقرهم جميعا طوال الأيام الثلاثة.. النساء السبعة و «شارلى».. يأكلون.. ويدخنون.. وينجزون مهام الكورس الذى جئنا لدراسته.. «الحركة العالمية وحقوق الإنسان» فى المعهد الدولى للصحفيين.. وأيضا.. حكيهم وأفكارهم.. الشرق أوسطيون يتفقون فى الكثير من الرؤى حتى لو بدوا عكس ذلك.. سأل «عمر» ذات ليلة: هل تعرضت إحداكن لخيانة الشريك؟ صمتن جميعا فيما لو بدا أن كلهن قاسين من خيانة الشريك مرات.. ثم ردت «دنيا عزيز» أخيرا.. وهى باكستانية أمريكية.. نائبة بالبرلمان.. عمرها – وقتها – 38 عاما.. قالت: أنا تعرضت لخيانة رجل كنت قد ارتبطت به.. صمت ساد الغرفة.. وهى.. حين قالت جملتها بشجاعة.. كانت تدرك النظرات الشاخصة باتجاهها.. وكانت تدرك أيضا أنهم فى انتظار الحكى.. فحكت!!

ثم حكت الأخريات.. و «عمر».. وبين كل لحظة سعال وأخرى.. كنت شديدة الإصغاء والانتباه.. لتفاصيل بشرية صادقة.. ليس بينها الكثير من الاختلاف.. ثم استداروا ناحيتى.. وقرأت فى عيونهم السؤال.. فقلت دون انتظار: أصدقكم القول.. لم أمر بهذه التجربة الصعبة.. لكنى أدرك جيدا عمق ما تشعرون.. أفكار الشرق أوسطيين حول الزواج.. والطلاق.. والحياة.. وفهم الدين.. متشابهة بدرجة كبيرة.. تشعر هذا عندما تشاهدهم فى «الأوبزرفاتور» وغيره من المقاهى التى تحمل طابعا شرق أوسطيا.. لكنهم عندما يبدأون فى التحاور والنقاش.. لا سيما فى السياسة.. فهم مختلفون.. لا يسمعون.. فقط يتحدثون.. فهم لا يعرفون معنى الحوار!!

10

جئت «ستراسبورج» لدراسة الكورس الحقوقى بمعهدها العريق.. فدرست كورسا آخر إضافيا.. التدريب على حقوق الإنسان.. جئت هذه المدينة حاملة معى أفكارا من وطنى.. ومجتمعى.. وبعض المعلومات والتجارب البسيطة مع البشر والحياة.. وعدت وقد أدركت جيدا صغر هذا العالم.. على رحابته.. وطول المسافات بين بقاعه.. البشر هم البشر فى كل مكان.. وهم الذين يضفون من روحهم على المكان.. فتشعر به.. أو لا تشعر.. أو تقع فى هواه.. أو تدرك جيدا عمق حنينك لوطنك.. عشقت «ستراسبورج».. ولم تعجبنى الفوضى والعشوائية فى باريس.. لكن حنينا جارفا انتابنى طوال الأسبوع الأخير من إقامتى لمصر.. كنت أقول لرفقتى: أريد العودة.. أفتقد وطنى.. أفتقد مصر.. فكانوا يقولون: سوف نعود جميعا..

عندما ربطت حزام الأمان فى الطائرة المغادرة من فرانكفورت إلى القاهرة.. عادت «أسمهان» تلح على تفكيرى.. قال لها ذات يوم فلكى شهير: سوف تكونين ضحية حادث.. وسوف تنتهى حياتك فى الماء.. والمدهش أنه قبل أربع سنوات من وفاتها.. كانت تمر فى المكان نفسه الذى غرقت فيه.. فتوقفت للراحة.. قالت لمرافقها محمد التابعى رئيس تحرير مجلة آخر ساعة: أشعر بالرعب.. وكان صوت آلة الضخ البخارية التى تعمل فى الترعة.. ثم أضافت: كلما سمعت هذه الدقات.. تخيلتها دفوف جنازة!! ظلت تلح على عقلى حتى غلبنى النوم.. وعندما استيقظت كنت فى القاهرة.

obeikandl.com

الثانية

بادن ـ بادن

مدينة المال.. والتاريخ.. والينابيع!

كلمة «مركيز» بالألمانية تعنى كوكب عطارد.. وترمز أيضا إلى إله رومانى قديم.. كما أنه نوع من المعادن.. جبل «مركيز» هو أول ما وطأت أقدامنا فى مدينة «بادن ـ بادن».. ليس لسبب سوى لأنه كان مهبطنا من قطار السكك الحديدية الذى ركبناه من ستراسبورج ليعبر بنا الحدود إلى ألمانيا..

وهو قطار معلق فى جبل «مركيز».. وهو من أكثر القطارات الأوروبية تقدما من الناحية التقنية.. استغرقنا من الوقت 30 دقيقة على ارتفاع 1214 قدما لعبور الحدود الألمانية الفرنسية.. والوصول إلى قلب الجبل.. عبر طريق شديد الانحدار.. الجبل يصل ارتفاع قمته إلى 2191 قدما.. نرتفع أحيانا وننحدر أحيانا فى ارتفاعات مختلفة حتى يصل بنا القطار إلى نقطة النهاية.. وعند الوصول إلى محطة القطار الألمانية.. يمكنك اختيار رحلة من الرحلات التى تنظمها المحطة لمرتاديها لصعود الجبل بأتوبيسات صغيرة كل 15 دقيقة.. بين العاشرة

obeikandl.com

صباحا وحتى العاشرة مساء.. أو الاعتماد على نفسك بتسلق الجبل.. فى ممرات مخصصة لذلك فى الجبل نفسه.. مسترشدا بالعديد من اللافتات واللوحات الإرشادية والخرائط أو بمساعدة دليل.. ولك خيار آخر وهو ما اخترته أنا.. التجول فى المدينة نفسها بعيدا عن جبل «ماركيز».. مقصدى لم يكن الجبل.. كان «بادن ـ بادن».. من رشحها لى قال إنها أشهر المنتجعات الصحية فى العالم.. فى الشمال الغربى من «الغابة السوداء» فى ألمانيا.. وطبعا لا أعرف شيئا عن أمر تلك الغابة.. عدد سكان تلك المدينة 55 الف نسمة تقريبا.. بها الكثير من ينابيع المياه المعدنية.. التى داوم الرومان على استخدامها قبل ألفى عام تقريبا.. مخلفين ورائهم آثارا لحمام الرومانى القديم الذى مازال موجودًا فى المدينة حتى الآن.

1

أسوأ ما يمكن أن تواجهه فى ألمانيا.. ألا تجد من يحادثك بأى لغة سوى الألمانية.. يعرفون جيدا الانجليزية ويصرون على إجابتك بالألمانية.. وحقيقة فقد حرت فى تفسير هذا.. أهو نوع من مضايقة «الآخر»؟ أهو اعتزاز باللغة الأم؟ أم عدم معرفة بأى لغات أخرى؟ أم ماذا؟ والحقيقة أن انطباعى هذا كان عن المواطن الألمانى فى الشارع.. أما من قد تقابلهم فى ندوة أو مؤتمر أو أى مكان فهم يحدثونك الانجليزية ببساطة إذا كانوا يعرفونها.. لذا فأثناء تجوالى فى تلك البقعة العظيمة من الخضرة.. وأنا لا أعرف بالطبع أين أنا بالضبط.. اللافتات كلها بالألمانية.. ولا أحد يمكنك أن تسأله أين أنا؟ كل ما تركز عليه أن تحفظ الطريق الذى أتيت منه حتى تعود إليه..

obeikandl.com

2

وسط كل هذه الخضرة اللانهائية.. من حشائش وأشجار عتيقة وأعشاب وورود.. التقت عينى بلا ترتيب بعينى امرأة ذات شعر أبيض.. كانت تجلس على مقعد حجرى فى مواجهتى.. كانت تبتسم لى مشجعة.. بادلتها الابتسام مترددة.. فالابتسام سوف يفضى بالطبع إلى حديث.. والحديث سيكون بالألمانية.. وتلك مأساتى الكبرى.. أشارت لى بالجلوس إلى جانبها.. تقدمت محافظة على ابتسامتى وترددى فى ذات الوقت.. جلست بجانبها.. كانت قد تخطت السبعين من عمرها.. تجلس فى سلام وقد طوت جريدة بجانبها.. قالت كلمتين أو أكثر بالألمانية.. فطلبت منها بلطف الحديث بالانجليزية.. وهو أمر اعتدته من طول عبورى الحدود إلى ألمانيا.. جمل ألمانية يعقبها طلب بالحديث بالانجليزية.. يعقبها صمت.. ثم إشارة صامتة بهز الرأس «لا».. ولدهشتى فقد تحدثت المرأة بالانجليزية.. سألتنى: أنت من الشرق؟ قلت: نعم.. سألتنى: من أين؟ قلت: مصر.. ابتسمت ابتسامة واسعة ورحبت بى.. وبدأت الحديث عن ألمانيا.. وهو أمر قد يطول بك لنهاية اليوم.. قالت لى: أتعرفين تلك المنطقة؟ قلت للأسف لا تلك هى المرة الأولى لى التى آتى «بادن ـ بادن».. بالمناسبة ما معنى الكلمة؟ قالت: «بادن ـ بادن» تعنى «شوية شوية».. أنت الآن فى «الغابة السوداء».. تلفت حولى أحاول نسخ صورة للمكان فى الذاكرة.. قالت: الغابة السوداء منطقة غابات جبلية على شريط الحدود الألمانية.. فى ولاية فورتمبيرغ.. كل هذه الخضرة التى ترينها على امتداد بصرك.. تتشح كلها بالسواد ليلا.. فأشجار الصنوبر المخضرة طوال العام كثيفة جدا.. وبلا إضاءة تصبح ظلمة حالكة.. لذا أطلق عليها هذا الاسم «الغابة السوداء».. سألتها:

كم مساحتها تقريبا؟ قالت: هذا المستطيل الذى تتكون منه طوله على الحدود 200 كيلو متر.. وعرضه حوالى 60 كيلو متر.. أى أنها تقريبا 12 ألف كيلو متر مربع.. أعلى نقطة ارتفاع بها تبلغ 1493 متر وهى قمة «فيلدبرج».. سألتها فى دهشة: هل كل الألمان يعرفون تلك المعلومات بهذه الدقة؟ ابتسمت قائلة: أنا درست فى حياتى الجغرافيا والعلوم الطبيعية.. وصارت متعتى بعد التقاعد أن أطبق عمليا كل ما أمضيت العمر فى دراسته.. أذهب بنفسى إلى كل نقطة كلما استطعت واستمتع بما كان أوراقا فى يدى ذات يوم..

على إحدى القمم الجبلية.. لفتت نظرى بناية مهيبة.. لا تبدو قصرا بقدر ما تبدو قلعة قديمة جرى ترميمها.. يبدو أننى أمضيت وقتا مبالغا فيه فى تفحص تلك البناية.. وكنت قد نسيت السيدة الفاضلة الجالسة إلى جوارى.. بادرتنى قائلة: هذا القصر.. ممنوع الاقتراب منه.. التفت إليها متساءلة دون أن أنطق.. قالت: هذا القصر منذ سنوات محاط بحراسة شديدة.. ويقال أن الرئيس الروسى السابق «جورباتشوف» يعيش به فى شكل سرى.. ويقال أيضا أنه أسس جمعية أهلية هنا فى «بادن ـ بادن».. كالصاعقة وقعت كلماتها على رأسى.. هل فعلا يعيش الرجل هنا منذ فكك الاتحاد السوفيتى؟

3

«بادن ـ بادن» أرض الينابيع المعدنية والمنتجعات الصحية.. وفى هذه الأرض ينبع نهرا «بريج» و «بريجش» اللذان يلتقيان ويتحدان فيشكلان نهر الدانوب الشهير.. هذا كله بخلاف البحيرات والشلالات والجداول المائية التى تمتلىء بها أرجاء تلك الأرض الواسعة.. التى تنتج غاباتها الكثير من

الأشجار التى يتم تقطيعها لإنتاج أخشاب.. ثم تزرع بالأشجار الجديدة التى تنمو سريعا.. وفى الجزء الجنوبى من «الغابة السوداء» تتمركز محاجر الجرانيت بألوانها المميزة.. وهناك منتجات يحافظ سكان «الغابة» على صناعتها مثل الدمى وأجهزة الراديو والآلات الموسيقية.. لأنها من تراثهم تماما مثل حفاظهم على رواية أساطيرهم القديمة وقصصهم الخرافية.. وهم يدركون جيدا أنها خرافية.. لكنها جزء من عاداتهم وموروثهم.

4

تلك المدينة الغريبة التى قيل لى قبل أن أهبط أرضها أنها مدينة رجال الأعمال والطبقة الراقية.. فدخلتها ولدى انطباع لم يكن أبدا واقعيا.. حتى رغم مرورى بحفل مقام فى إحدى بقاع الغابة المترامية.. كان حفلا نهاريا كلاسيكيا.. أزياء الرجال والنساء.. ومائدة الطعام الفاخر الطويلة الممتدة.. ونوع الموسيقى الخافتة التى كانت تغلف أجواء الحفل.. فهذا المشهد يختلف تماما عن الصالة الرسمية للفنون «ستاتليتش كنستاهول».. فصالة العرض التى تقع على أطراف منتزة مترامى الأطراف.. تعرض تحت سقف واحد، أعمال تحمل بصمات فنانين من مختلف بقاع الأرض.. فنانون حملوا لوحاتهم الزيتية.. ومنحوتاتهم بكل عناية ودقة.. وصورهم التى اقتنصت لحظات استثنائية، وأفلامهم التي توثق تاريخ هنا وتاريخ هناك.. ليتم عرضها داخل جدران تلك الصالة وفى محيطها.. قد يستغرقك الوقت داخل المكان دونما أن تنتهى من كل اللوحات المعروضة.. فسواء كنت خبيرا بالفنون الجميلة أو معجبا بها، فإنك ستجد فى هذه الصالة ما يلقى عندك هوى.

5

هو متحف حديث يقع فى شارع «لشتنتال».. يراه كثير من الروس جوهرة الجوهرة بادن بادن.. المبنى الذى يضم المتحف يتمتع بإضاءة طبيعية من نور الشمس الذى ينسكب من شبابيكه الواسعة.. مفترشا مساحة كبيرة فى الداخل فيجعلها متوهجة بالضوء.. صمم المتحف المهندس المعمارى الأميركى الشهير «ريتشارد مايير».. يحوى المتحف العديد من القطع الفنية تتنوع بين 500 لوحة زيتية.. رسومات، ومنحوتات، وأشياء أخرى تحكى عن تاريخ الفن خلال المائة سنة الماضية.. المتحف يضم الفن الكلاسيكى الحديث، وأعمالا للفن التعبيرى.. كما يحتفى بمجموعة من آخر أعمال الفنان العالمى الشهير»بابلو بيكاسو «.. اللوحات التعبيرية التجريدية حاضرة هنا وتحمل توقيع الرسام الأميركى «جاكسون بولوك»، وكذلك الجداريات التي تحكى عن تأملات معاصرة.. أما اللوحات المرسومة بأنامل الرسامين الألمان الذين لمعت أسماؤهم فى فترة ما بعد الحرب العالمية فتحتل مركزا مرموقا.. منهم»جورج بازيليتز»، «سيغمار بولك»، و «جيرار ريتشر».

على بعد خطوات قليلة لا تتجاوز العشرين.. وبينما تتجول فى هذه المدينة.. ستجد الكثير من المحال التجارية.. وسط كل تلك المناظر الطبيعية الساحرة.. والبنايات العتيقة التاريخية.. محال تعرض الملابس والأحذية من أرقى الماركات العالمية.. فى نفس عام نزولها أسواق الموضة العالمية.. أما عن أسعارها فلا تحدثنى عن باريس أو غيرها من عواصم الموضة.. أسعار فلكية.. وإقبال مدهش من مجتمع «بادن ـ بادن» على الشراء!!

obeikandi.com

6

الحقيقة أننى لم أتجول فى الدير من الداخل.. تجولت حوله وتحدثت مع القائمين عليه.. وهو شىء ندمت كثيرا على أنى لم أفعله عندما عدت إلى مصر.. فبرنامج زيارة الدير يتضمن محاكاة للحياة اليومية لتلك التى تعيشها الراهبات البندكتيات، يضم غرفا للإيجار.. لمن يرغب فى مشاركة الراهبات فيما يقمن به من طقوس دينية وأعمال روتينية.. كالاهتمام بحديقة الدير مثلا.. أو القداس الإلهى والاستماع إلى الترانيم.. لم أمر بتلك التجربة.. لكننى أستطيع ببساطة تصور متعة أن تختلى بنفسك لبعض الوقت.. فى مكان منعزل عن كل شىء إلا من الطبيعة.. فقط.. الدير الذى بنى فى العصور الوسطى عام 1245 يقع فى شارع «لشتنتال» نفس الشارع الذى يقع فيه متحف «فريدر بيردا».. أما متحف «بادن ـ بادن» فهو يختلف عنه كثيرا.. بجناحه الزجاجى الحديث الذى يضم منحوتات وقطع فنية من عهد الرومان وحتى اليوم.. مجسمات قوطية الطراز تم جلبها من كنيسة المدينة أو كما تعرف محليا باسم «ستفتسكيرتش».. تتراص فى المتحف دمى جميلة الشكل.. متفاوتة من حيث تاريخ صنعها.. وعملات نقدية وميداليات متميزة.

7

هو منزل الموسيقار الألمانى الشهير «يوهان برامز».. هذا المنزل المعروف باسم «ليشتنتال» ويحمل رقم 8، أمضى فيه «برامز» فترة من عمره بين عامى 1865–1874 وكتب بعض مقطوعاته الموسيقية العالمية.. لا سيما فى الغرفة

الزرقاء.. التى احتفى بها القائمون على أمر المنزل.. «يوهان برامز» كان مؤلفا موسيقيا ألمانيا، انتمى للمدرسة الرومانسية.. أهم ما قيل عنه أنه استمرار لبيتهوفن.. واعتبر بعض المتخصصون أن السيمفونية الأولى «لبرامز» يمكن اعتبارها السيمفونية العاشرة لبيتهوفن..

ولد «يوهان برامز» فى مدينة هامبورج بألمانيا.. لوالد كان عازف كونترباص فى أوركسترا الأوبرا.. وفيها تعلم العزف على البيانو منذ صغره.. كان يعزف فى المقاهى وحفلات الرقص فى صباه لمساعدة عائلته.. بالعزف ولكنه لم ينقطع عن دراسة النظريات والعلوم الموسيقية.. ولما بلغ العشرين كانت موهبته كعازف بيانو قد نضجت فقرر أن يقوم بجولة فى مختلف مدن ألمانيا يعزف منفردا فى الحفلات.

تهتم جمعية «برامز» بإحياء ذكرى الموسيقار الشهير.. فتقيم احتفالية ضخمة كل عامين.. تعرف بـ»برامز دايز».. أو «أيام برامز».. تشمل سلسلة من العروض الفنية والمهرجانات الثقافية التي تقام فى معظم صالات المهرجانات فى «بادن ـ بادن».. حيث تصدح فى سماء المدينة معزوفات الموسيقار الشهير.. سمعت ألحانه داخل المنزل أو على بابه.. لكن وقت زيارتى لم يكن التوقيت السنوى لهذا المهرجان.. ورغم أننى لست متبحرة فى السيمفونيات الموسيقية.. إلا أننى بالفعل شعرت بروح موسيقى «بيتهوفن» فى موسيقى هذا الرجل.

8

كثيرة القلاع المتناثرة هنا وهناك.. فى أنحاء بادن بادن المختلفة.. ولكن يبقى أهمها وأشهرها «التس سكلوس» أو «القلعة القديمة».. التى بنيت بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر.. وكانت مقر النبلاء فى المدينة.. آثارهم مازالت

موجودة بين آثار القلعة التاريخية.. فتضم أبراجا محصنة.. وتقود الزائرين درج إلى مركز المراقبة.. تشمل مختلف أنحاء بادن بادن.. والغابة السوداء، ووادى الراين.. أما القلعة الجديدة فتقع على تلة «فلورينتنبرغ» المشمسة والمطلة على المدينة.. للأسف تلك قلعة لا يمكن زيارتها أودخول حدائقها لأنها أملاك خاصة.. ولكن بالإمكان قضاء بعض الوقت فى الساحات المنتشرة أمامها.. جميع مقتنيات تلك القلعة بيعت بالمزاد العلنى عام 1995.. اشترت القلعة عام 2003 مجموعة استثمارية كويتية.. أو هكذا قيل لنا.

9

الكنيسة الروسية هى نموذج للكنائس البيزنطية التى تشتهر بقبابها الذهبية.. شيدها «فلاديمير بوتيمكن» و «برنارد بيلزر» بين عامى 1880-1882.. يقال عن ديكورالكنيسة المزدانة بالرسومات الدينية، بأنه نسخة لإحدى لوحات الرسام الشهير «غريغور غريغورييباوتش».. أما كنيسة «ستفتسكرتش» التى تبدو مخيفة إلى حد ما.. بدرجاتها الصاعدة التى تقود إلى ساحة «ماركتبلاتز».. درجات السلالم صعبة الصعود.. لكنها تمنح الصاعدين منظرا بانوراميا لمدينة «بادن ـ بادن».. عندما تصعد الدرجات إلى نهايتها.. ستكتشف روعة كنيسة «ستفتسكرتش» من الخارج.. بهندستها القوطية، ومدخلها المنحوت بعناية ودقة.. كانت الكنيسة فى الماضى كاتدرائية شيدها الرومان لممارسة طقوسهم الدينية.. لكن طالتها الكثير من التغييرات والتعديلات خلال القرون الماضية.. أضفت عليها تلك الهالة المخيفة عما كانت عليه فى الماضى..الحجر المنحوت داخل الكنيسة.. يمثل المسيح مصلوبا ويرتفع نحو 18 قدما.. يجاور النحت رسومات لمقابر نبلاء بادن الأربعة عشر..

أشهرهم «لودويغ ويلهالم» 1677-1707.. كنيسة «ستوردزا» شيدت بين عامى 1863-1866 على يد البناء الشهير «ليو فون كلانتس».. الذى نزح إلى «بادن ـ بادن» من مدينة ميونخ الألمانية.. فأخرج كل ما لديه من إبداع عند بناء تلك الكنيسة.. سميت الكنيسة بهذا الاسم نسبة إلى آخر أسرة حكمت منطقة مولدافيا، وهى أسرة «ستوردزا».. وهى التى طلبت بناء هذا الصرح الدينى عند منحدرات المدينة الخضراء.. بنيت هذه الكنيسة بنوع من الحجر الرملى.. تتعدد ألوانه بين الأبيض والأحمر والبنى.. يزدان مدخلها بأربعة أعمدة أيونية الطراز.. ويتوج قبتها صليب للروم الأرثوذكس.. أما داخل الكنيسة فتتجلى عظمة الروح الشرقية.. والتى يتجلى فيها حاجز مزدان بالأيقونات.. يفصل المذبح عن الجزء الأساسى فى الكنيسة.. إضافة إلى اللوحات الجدارية التى تزين المذبح وسقف الكنيسة.

المتبقى مما تضمه المدينة كثير.. الشمس قاربت المغيب.. وما تبقى لى من وقت كان قد شارف على النفاد.. لذا فقد بدأت البحث مرة أخرى عن الطريق الذى جئت منه.. وطوال الجولة كنت أضع نصب عينى ألا يغيب.. فإذا فقدته لن أجد من أسأل للعودة إلى محطة القطار.. أخذت موقعى سريعا بجوار النافذة.. وأخرجت المطبوعات السياحية الخاصة بالمدينة.. أنظر إليها مجددا.. أحاول حفر تلك الأماكن التى لمستها طيلة اليوم.. على الخطوط الممتدة والمتقاطعة على ورق الخريطة أمامى.. ويبدو أنها كانت محاولة ناجحة.. فاستدعاء تفاصيل تلك الرحلة بعد سنوات.. لم يكن أمرا صعبا!!

الثالثة

مقاهى الحسين والشانزليزيه

الشاى والقهوة.. العناب والطاولة.. الحكى ثم الحكى ثم الحكى.. البشر متجاورين.. متقابلين.. الأماكن يختلف شكلها.. من مدينة لمدينة.. ومن حى لحى.. ومن بلد لبلد.. لكن تبقى روح «القهوة» أو «المقهى».. مرآة لروح المكان الموجودة فيه.. من المقاهى.. خرجت حركات ثقافية.. وتطورت أخرى.. وفيها كانت صفقات عمل.. وتجمعات عمال.. قصص حب.. وبيانات سياسية.. من القاهرة إلى باريس «المقاهى» حدوتة فى تاريخ بلدان كثيرة..

1

السبورة السوداء.. والطباشيرة.. مفردتان من عصر «الشكك» كما كان يقول المصريون.. أو الطلب على الحساب.. أو الطلب والدفع حين ميسرة.. أو الدفع الشهرى أو الأسبوعى.. و «المقهى» نفسه مفردة مصرية فى كل بقعة على أرض مصر.. منذ زمن طويل.. فى الحى الشعبى.. والمتوسط.. لكن لا

obeikandi.com

بد أن تجده.. عملاؤه أو زبائنه أو المترددون عليه.. ليسوا دائما عنوان لحالة المكان الذى يستقر فيه المقهى.. «نجيب محفوظ» و «توفيق الحكيم» و «إحسان عبد القدوس».. ولدت كل التفاصيل المصرية الحية فى أعمالهم الروائية.. أو التى تحولت فيما بعد لسينمائية.. من هذه المقاهى.. المقاهى الشعبية التى أخذت نصيبها من الشهرة.. تلك المنتشرة فى السيدة زينب والحسين..هى منجم للمفكرين والمبدعين والذى خرج منهم أشهر الكتاب والرسامين والمبدعين.. وهى سمة وجدت أيضا فى أمريكا اللاتينية.. فالأديب البرازيلى «باولو كويلهو» .. كان عاشقا للمقاهى فصارت نافذته على الحياة الواسعة.. وهو طريق سار فيه الكثيرون من الفلاسفة والأدباء الفرنسيين.. مثل: «سارتر» و «سيمون دو بوفوار» و «فروبيل» وحتى الرئيس الفرنسى الراحل «ميتران» نفسه.. ولدت إبداعاتهم وسط ضجيج البشر.. وفى رحاب المناطق الأثرية.. التى زحف البشر حولها.. فصارت شعبية.. مثل منطقة الحسين.. باكتظاظها بالسائحين.. عربا كانوا أم أجانب.. كانت عبقرية أصحاب المقاهى.. بالامتداد فى هذه المناطق.. أهميتها ليس فقط فى أنها ضرورة خدمية لهذه المناطق.. ولكن لأنها ملتقى راغبى السهر من المصريين والعرب والأجانب.. هذه المقاهى التى تحتفظ بطابع تراثى.. يجعلها جزءًا من نسيج المكان الموجودة فيه.. حتى لو كانت تقدم الخدمة «خمسة نجوم» .. أقصد ما يتعلق بالأسعار.. واختفت السبورة السوداء.. والطباشيرة..

2

ما بقى فى الذاكرة من الزيارة الأولى إلى مقهى «الفيشاوى» بمنطقة الحسين.. ليس بالكثير.. كنت فى السابعة أو الثامنة من العمر تقريبا.. وفى صدر المشهد البعيد فى أعماق الذاكرة.. براد الشاى الصغير أبيض اللون.. الذى يتفنن عامل القهوة فى صب الشاى منه.. على أبعد ما فى الإمكان.. مراقبا الاندهاش فى عينيك.. أو القلق من أن يتناثر ذاك الرزاز المتطاير.. عبر مسافة ربع متر مثلا.. رائحة النعناع.. شىء آخر يعلق بالذاكرة أيضا.. تلك الرائحة المميزة.. وبقيت بالذاكرة أيضا أغانى أم كلثوم.. التى لم تكن مفهومة بالنسبة لى بالطبع.. لكنها كانت جزءًا من روح هذا المكان.. وعندما زرته بعدها بخمسة عشر عاما.. لم يكن قد تغير فيه شىء كثير.. الشارع الضيق.. ودرجات السلم العتيق الذى تنزله وصولا للمقهى.. الكراسى الكلاسيكية الخشبية القديمة.. والمقاعد المتراصة بجوار بعضها البعض.. بمسافات تكاد تكون منعدمة.. متسقة مع ازدحام المنطقة برمتها.. انعدام المسافات سمة رئيسية فى هذا الحى.. بين المحال وبعضها.. بين المقاهى وبعضها.. بين البشر وبعضهم.. هذه منطقة ترفع شعار «اللامسافات».. جارك فى المائدة المجاورة.. تفصله عنك مسافة 5 سنتيمترات! وبدأت أعى معنى أن يكون مكان ما قديما.. أن يتجاوز عمره المائتى عام.. أن تمنحه تلك السنون هيبة وميزة.. فيبحث عنه المغرمون بالقديم.. من كل أنحاء العالم.. تمسكه بالفرش العربى القديم.. والبراويز والأرابيسك.. ابتدع هذا اللون من الديكور المتسق مع روحه.. فصار منهجا فى حى الحسين.. سارت عليه المقاهى الملاصقة للفيشاوى.. أكثر من يجادل فى

دفع فاتورة الحساب الروس.. يليهم الإيطاليون ثم الأمريكيون.. السائح الأجنبى لا يعرف أسماء المقاهى.. ولكنه يبحث عن المقهى الذى يوحى إليه بتاريخ المكان.. الإسلامى والفرعونى.. ورغم غزو ألفاظ إنجليزية مثل «كافيه» أو «كافيتيريا».. فى الشوارع الضيقة لحى الجمالية.. ذاك الحى البديع الأثرى.. إلا أن التسمية لم تأخذ من الروح الشعبية لهذه الأماكن..

3

لا يخلو الأمر من تجارة بالأسماء.. أو بالتاريخ.. أو بالبشر أحيانا.. ففى نفس المنطقة.. فى درب «البادستان».. بمنطقة «خان الخليلى».. يقع مقهى «نجيب محفوظ».. الذى استخدم صاحبه ذكاءه.. باستدعاء عالم «محفوظ» بشكل واضح.. فاستعان فى المقهى ببعض التفاصيل لصياغة أسطورة ارتباطه بمحفوظ.. فأحد الأعمدة الخشبية بالمقهى يحمل توقيعا لنجيب.. بتاريخ 11 يناير 1989.. وهو العمود المواجه للمدخل.. وبجانبه البورتريه الضخم للكاتب الكبير.. أعلى الموقع المفضل لجلوسه.. وإلى يمين الداخل هناك رف يحمل أعمال «نجيب محفوظ».. نعم هى كتب قليلة العدد لكنها مجلدة.. «خمارة القط الأسود» و «بداية ونهاية» و كذلك ترجمات الجامعة الأمريكية لكتبه.. يحاول المقهى رسم المناخ الروائى لمحفوظ.. ركن مخصص للشيشة.. وركن لماسح الأحذية.. وآخر لعازف قانون.. قام طاقم المقهى بالترويج بين المقاهى المحيطة ومع الزبائن.. أن المقهى قديم وتم تغيير اسمه إلى «نجيب محفوظ» تقديرا للكاتب والضيف الذى فاز بنوبل.. محفوظ كان الضيف الأهم للمقهي والمطعم.. لكن المفاجأة أن المقهى لم يكن قديما.. ولا كان باسم آخر وتم تغييره.. المقهى تم افتتاحه أصلا عام 1989.. أى بعد عام من حصول محفوظ على جائزة نوبل!

أما «محفوظ» نفسه فقد كان مداوما على مقهى أو اثنين محددين «على باب» فى ميدان التحرير.. و «أسترا» فيما بعد.. تلك التى جرت بجوارها العملية الإرهابية التى كانت تستهدفه منذ سنوات.. كان يأتى من منزله فى العجوزة.. سيرا على الأقدام إلى التحرير.. حيث مقر المقهى الذى يريده.. أفكاره وشخوصه تتقافز داخل رأسه.. ذهابا وإيابا.. يقرأ صحف الصباح منتحيا جانبا.. ويتناول قهوته.. ثم يستجيب لأى حوارات قد يفتحها بشر معه.. من العاملين بالمكان.. أو مرتاديه.. ومن الدور الثانى للمقهى.. حيث كانت جلسته المفضلة.. كان يرقب الحركة النهارية فى ميدان التحرير.. السيارات والمارة.. البشر فى مصر المحروسة.. الذين كانوا دائما يمثلون وحيا ما بالنسبة له.. لم تكن روح المكان.. تلك التى صاغت الكثير من الأشياء.. ولا كانت روح البشر.. كانت روح الراحل العظيم.. التى استطاعت احتواء المكان والبشر..

4

منذ 7 سنوات.. كان «كافيه ريش» المحل المختار لفريق من عدة دول عربية.. مصر والعراق والسودان.. كنت أحدهم.. وكنا نعمل لعدة أشهر لإصدار مطبوعة إماراتية من القاهرة.. فكانت قهوة ريش مستقرنا عشرات المرات.. ليس لشىء إلا لاقترابها من أماكن عملنا جميعا.. فى منطقة وسط المدينة.. كان المقهى علامة بارزة فى تاريخ الفن والثقافة.. مجموعة اللوحات المعلقة على الجدران الخارجية لها.. والتى مهما عبرت من أمامها.. أو توقفت لمشاهدتها.. لا تملك فى كل مرة سوى التوقف.. وإلقاء نظرة.. سريعة أو متأملة.. فى تفاصيل تلك الصور ذات اللونين.. الأبيض والأسود.. ترسم ببساطة صورة مصر فى سابق الزمان.. ورواده المتميزين على مر العصور.. كان

obeikandl.com

لمقهى «ريش» حديقة واسعة ممتدة حتى ميدان طلعت حرب.. على مسرحها قدمت السيدة «أم كلثوم» أول حفلاتها فى القاهرة.. وقدمت السيدة «فاطمة اليوسف» مسرحيتها « هل تحبين إيميلى «.. وفى هذه القهوة نبتت بذرة قصة الحب بينها وبين زوجها «محمد عبد القدوس» والد الكاتب الكبير «إحسان عبد القدوس».. كان مولد المقهى فى نهاية القرن التاسع عشر.. سماه صاحبه الفرنسى «هنرى ريش» ريش تخفيفا فى نطق اسمه على المصريين.. لكن فى الحرب العالمية الأولى استدعى للتجنيد فباع المقهى وعاد إلى فرنسا.. اشتراه اليونانى «ميشيل بوليتس» وكان مدير لأحد كازينوهات منطقة الأزبكية.. عام 1916.. وبعدها بستة عشر عاما.. فى 1932 اشتراه يونانى آخر.. «مانولاكس» وسنة 1942 استمر شراء المكان من يونانيين فاشتراه اليونانى «جورج ايفتانوس وسيلى «.. لكن فى سنة 1960 آلت ملكيته بالشراء لأول مصرى هو «عبد الملك خليل».. كان رجلا صعيديا عرف قيمة المكان وحافظ عليه... وبعد رحيله ورثه ابنه «مجدى».. «ريش» كان مكانا محظوظا برواده: «جمال عبد الناصر» «صدام حسين» «عبد الوهاب البياتى» «محمد الفيتورى» «عبد الفتاح إسماعيل» رئيس جمهورية اليمن الشعبية السابق.. وفى نهاية السبعينيات من القرن الماضى.. كان «ريش» مكانا لثورة المثقفين.. فقد خرج « بيان الحكيم « أو بيان اللا سلم واللا حرب.. من هذا المكان.. وأضرب الأدباء عن الطعام بعد معاهدة كامب ديفيد.. بعد زلزال 1992.. أغلق «ريش» وأعيد ترميمه وتجديده.. وعاد يمارس دوره لكن ليس بنفس القوة.. بعض ندوات الجامعة الأمريكية.. أو حفلات توقيع كتب.. تحول المقهى إلى مطعم فقط.. ساهم فى ابتعاد تلك النوعية من مرتاديه عنه.. فهى نوعية لا تقيم للطعام وزنا.. طعامها

وزادها الحكى والنقاش.. تلك الثقافة التى مازالت موجودة فى مقاه أخرى.. مثل «الشنزليزيه»..

5

فى شارع «الشانزليزيه» .. كانت المقاهى.. كل المقاهى متشابهة.. وليست كمقاهى القاهرة.. قيمة منطقة «الشانزليزيه» لا تكمن فى سعة شوارعها.. أو المشاهير الذين مروا عبرها ولكن بسبب كونها ساحة تجمع كل الثقافات دون تفريق.. الحكى فيها لا ينقطع.. إذا لم تكن هناك مادة تغذيه.. فيكون غذاؤه على تاريخ المكان نفسه.. الشارع الممتد من ساحة كونكورد والتى يسمونها «ساحة التعاضد» المطلة على حدائق متحف «اللوفر» وحتى «قوس النصر».. تمثل لوحة فريدة من نوعها فى العالم.. شارع يزيد عرضه على 71 مترا.. سار فيه ملوك وأباطرة فرنسا.. وزعيم ألمانيا النازى «أدولف هتلر».. الذى احتل باريس .. ثم سار فيه الجنرال «شارل ديغول» الذى حررها فيما بعد.. سكن إحدى بنايات هذا الشارع.. الرئيس الأمريكى «توماس جيفرسون» حين كان سفيرا لبلده فى العاصمة الفرنسية.. كل لغات الأرض ينطقها بشر من جميع الأجناس.. يدلفون ويخرجون من المحلات المتنوعة.. المقاهى الكبيرة والمطاعم.. دور العرض السينمائية والمسارح والمصارف.. مكاتب شركات الطيران ومعارض بيع السيارات الفاخرة.. أشهر محلات بيع الأسطوانات الموسيقية ومحلات العطور.. وفى الشوارع القريبة والفرعية والمتاخمة للشانزليزيه استقرت شركات الأزياء الكبرى.. عام 2003 بدأت بلدية باريس حملة تنظيمية لهذا الشارع استمرت سنتين.. فأسست مواقف للسيارات وتحسين أرصفتها

وصيانة طرقاتها.. هذا التطوير أدى إلى رفع أسعار العقارات بشكل جنونى.. فأصبح ثانى أغلى حى عقارى فى العالم.. بعدما كان يحتل المرتبة العاشرة عالميا عام 1994.. وهذا انعكس على السكان الأصليين الذين رحلوا.. وانخفضت صالات السينما من 17 صالة عام 1994 إلى 7 صالات فقط!

على مسافة قريبة من فندق «ماريوت» الذى يقطنه رؤساء وأمراء الدول والشخصيات المهمة.. يقع مقهى «مونتى كريستو أورينت».. بنارجيلته المميزة.. ورائحة العطور الشرقية التى تنبعث من منطقة «مارينيون» حيث يقوم أصحاب المحال التى تبيعها.. ببعثرة أبخرتها فى الهواء .. فتشم أنوف العابرين طوال الوقت دهون العود والورد الفاخرة.. الشارع الذى يرتاده يوميا ما يزيد على 300 ألف شخص.. يتجاوز أحيانا النصف مليون شخص.. ويقرب من مائة مليون فى السنة.. والحكى فى سيرة الذين مروا بهذا الشارع على مر التاريخ.. ليس هو كل الحكى.. فهناك الكثير من الحكى عن تاريخه..

6

عام 1616 كان عام ميلاد «الشانزليزيه».. أنشأت الملكة «مارى دى مديسيس».. وهى من أصل إيطالى.. طريقا واسعا وكبيرا محفوفا بالأشجار.. يضمن للمتنزهين فى عربات تجرها الخيول الأمان.. اعيد تشجير الشارع عام 1667 تحت إشراف خبير الحدائق الملكية «لونوتر».. فضاعف عدد أشجاره فى صفين منتظمين ومتواصلين من كل جهة.. وحمل اسم «الشانزيلزيه» عام 1709.. وظل طوال القرن الثامن عشر شارعا يتجول فيه الناس داخل عربات تجرها الخيول نهارا.. ثم يصبح موحشا ومخيفا لا يتجرأ الكثيرون

على المرور فيه ليلا.. لا يضم سوى بضع بنايات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة.. لم يبق منها سوى البناية التى تقع فى رقم 25.. تلك البناية التى بنتها الماركيزة «بايفا».. وكانت من أصل برتغالى.. تلك البناية تضم داخلها سلما من حجر «الأونيكس».. وهو السلم الوحيد من هذا النوع فى العالم.. وفى أحد أطرافه.. بنى الامبراطور «نابوليون بونابرت» قوس النصر.. تخليدا لانتصاراته العسكرية وفتوحاته الحربية.. حفر على واجهته أسماء الجنرالات الذين عملوا إلى جانبه.. وتأخذ منطقة «الشانزليزيه» أهميتها الوطنية الكبيرة.. لأنها المكان الذى كانت تعبره الجيوش الفرنسية فى طريقها إلى الحروب التى خاضتها وبعد عودتها منها.. وفى عام 1828 تنازل البلاط الملكى عن ملكية المنطقة لصالح بلدية باريس.. وبسرعة تغير الأمر.. فتحول من شارع موحش إلى مكان يعج بالناس وصخب الحياة ليل نهار.. وهنا أنشأت البلدية أرصفة عريضة على جانبى الشارع.. وأقامت على طول امتداده العديد من بحيرات المياه.. وبعثرت 3000 عامود إنارة بالغاز.. وازدادت حركة النشاط فى المنطقة.. بإقامة المعارض الدولية فى القصرين الكبير والصغير.. المتمركزين على كلا جانبيه.. فتحول إلى ما يشبه قلب العاصمة فى القرن التاسع عشر.. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر.. طفت على الشارع الروح الشعبية.. فأقيمت المظاهرات الشعبية بالدرجة الاولى .. وأحيانا الرسمية.. وبها فيها العرض العسكرى السنوى.. الذى يخلد ذكرى سقوط سجن «الباستيل» فى 14 يوليو 1892.. وتقام سنويا جميع المظاهرات الرياضية الكبرى.. مثل »سباق الدرجات وماراثون باريس».. وكل الاحتفالات الشعبية الفرنسية.. تلك

الروح التى كان الرئيس الفرنسى الراحل «فرانسوا ميتران» منجذبا إليها.. فكان يحب التحرك من حدائق الإليزيه الهادئة التى تقع فى نهاية «الشانزليزيه».. إلى زحام الشارع الجميل.. فيتجول بين المارة والسائحين.. فقد كان يشعر – بحسب قوله – »بحرارة الناس ومتعة النزهة وصخب الحياة».. فى القرن العشرين.. وضع النصب التذكارى للجندى المجهول عند أعتاب قوس النصر.. الذى يرتفع لأكثر من 50 مترا.. وبمرور الزمن تحولت المنطقة الى ملتقى للشعب الباريسى.. حاملا ذكرى خرج مئات الآلاف من البشر فى 26 اغسطس عام 1944 لاستقبال وتحية الجنرال «ديغول» بعد التحرير من الاحتلال.. كتل البشر التى وصفها مراقبون وقتها بأنها «بحر هائج من الناس»! ذاك البحر الهائج الذى اختلطت به بعدها جنسيات وأعراق عديدة.. مازال محتفظا بروحه.. تلك التى كان «ميتران» يفضلها على حدائق الإليزيه الهادئة!

7

على الكراسى الخشبية العتيقة.. أو على تلك البلاستيكية الحديثة.. بين جدرات تحمل طابع العمارة الإسلامية.. أو تلك التى تحمل الطابع واللون الفرنسى الأبيض.. بين صياح وضجيج عمال المقاهى.. باللغة العربية فى القاهرة.. وباللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية واليابانية وغيرها فى الشانزليزيه.. ذكرنى الباعة الصغار وهم يروجون لبضاعة من آثار مصرية

obeikandl.com

مصغرة.. تماثيل وأهرامات ومسلات.. بالمسلة الفرعونية المصرية الشامخة وسط ساحة «الكونكورد» القريبة من الشانزليزيه.. تلك التى أهداها الخديوى «إسماعيل» لفرنسا.. وتعتبر قمة الفن الفرعوني.. ومن سخريات الزمن أو ترتيباته.. فعند أعتابها بالضبط.. نصب الثوار المقصلة لإعدام الملك «لويس السادس عشر».. آخر ملوك فرنسا قبل قيام الثورة الفرنسية.. حكاوى البشر لها طعم ولون ورائحة.. وتلك هى الدنيا!

obeikandl.com

الرابعة

6 ساعات فى «ناتسويلر»
آخر معسكرات النازي!

6 ساعات أمضيتها فى شهر يونيو 2007.. داخل آخر معسكرات التعذيب إبان فترة الحرب العالمية الثانية.. فى فرنسا.. ومهما كان صدق أو كذب ما ورد إلينا طوال سنوات ماضية.. عما دار داخل هذه المعسكرات.. فإن الوجود فى مكان تعلم جيدا أن بشرا كثر انتهكت آدميتهم.. على أقل تقدير.. أو قتلوا داخله.. أمر يجلب للنفس الكثير من الرهبة.. وأن رؤية آثارا خلفوها.. ملابس أو أحذية أو أشياء أخرى.. أمر كفيل باستدعائك تلك الفترة الرهيبة.. طالت أم قصرت.. التى أمضوها فى هذا المكان.. ومهما كنت فقط مشاهد.. فهى تجربة حقا صعبة!

obeikandl.com

1

ساعة ونصف داخل أتوبيس ضخم ضم 50 مواطنا من كل قارات العالم.. آسيا وإفريقيا وأوروبا والأمريكتين.. الاتجاه للشرق.. حيث الشمس المتربعة فى عرش السماء.. التاسعة صباحا.. كل الخواطر تداخلت فى رأسى.. أحاول فلترتها عمليا.. حتى تصبح المشاهدة القادمة ذات قيمة حقيقية.. فى الطريق إلى «ناتسويلر» آخر معسكرات النازى فى فرنسا.. كنت أجاهد نفسى لأصل إلى الحياد التام.. أؤهل نفسى تماما لاستقبال ما سوف أشاهده لأول مرة فيما تبقى من هذا المعسكر.. مشحونة بكل ما يدور حول معسكرات التعذيب تلك.. وما يسمى «الهولوكوست».. وكل الجهد الذى بذلته – ومازالت – إسرائيل لترويج الأمر كله.. والتحصيل بأثر رجعى من أوروبا كلها.. والاستجابة المدهشة لأوروبا لكل هذه الضغوط المستمرة منذ 60 عاما.. ومحاولة غسل اليد من تهمة مشكوك فى صحتها بالأساس.. ومنذ أخطرتنا الجهة المنظمة بهذه الرحلة.. إن جاز التعبير.. والعنوان التى اندرجت تحته «حتى لا يحدث مرة ثانية».. وأنا أفكر فى المعنى.. وهل التذكير – المغلوط – بما حدث منع حدوثه مرة أخرى؟! وما جدوى التذكير بالمعنى إذا كان يحدث كل يوم.. فى أماكن عدة على وجه الكرة الأرضية؟! الكثير من الأسئلة التى بدت لى طول الطريق بلا إجابات محتملة.. وجدت إجابات منطقية لها داخل هذا المعسكر.. ومن هنا يصبح التمرين باستمرار على تحييد الذات.. أو مجاهدتها تجاه قضايا تبدو من الثوابت.. أمرا مفيدا.. ومن هنا يتأكد أنه فى أشياء بعينها.. ليس كل ما يروجه العقل الجمعى للبشرية كلها.. فى فترات بعينها.. من الثوابت!

2

«هولوكوست».. طوال الطريق ظلت الكلمة تلح على عقلى.. محاولة تأصيلها.. أو تجذيرها.. أو معرفة متى بالضبط تم استخدامها أو ترويجها.. وسألت.. ولم أعرف.. وعندما عدت.. بحثت ودققت وعرفت.. فالكلمة التى تحولت إلى مصطلح.. استخدمت للمرة الأولى فى القرن التاسع عشر.. كلمة عادية لوصف الكوارث أو المآسى الكبرى.. ولكنها فى بداية الأربعينيات من القرن الماضى.. أخذت لونا ومعنى محددًا.. لوصف الحملات المنظمة من قبل حكومة ألمانيا – تحت حكم هتلر – وبعض حلفائها.. لاضطهاد وتصفية لليهود فى أوروبا عرقيا أثناء الحرب العالمية الثانية.. الكلمة مشتقة من كلمة يونانية تعنى «الحرق الكامل للقرابين المقدمة لخالق الكون».. ولكنها ظلت طوال الأربعينيات محدودة الانتشار.. ولم تلق هذا الطغيان الإعلامى حتى الخمسينيات.. وتطور الأمر بشكل أكثر تحديدا ودرامية فى السبعينيات من القرن الماضى.. فأصبحت «حصريا» لوصف إبادة اليهود من قبل الألمانية النازية.. قبل ذلك كان اليهود أنفسهم كانوا يستعملون كلمة «شواه» فى الأربعينيات للتعبير عن الكوارث.. وهى كلمة مذكورة فى التوراة.. والمدهش حقا.. قصر الكلمة على عرق بعينه.. فهناك الهولوكوست الآسيوى.. استعملت لوصف أوضاع جزر المحيط الهادى وأقصى شرق آسيا.. فترة الاحتلال اليابانى لها.. وهناك الهولوكست الأسود.. موت أعداد كبيرة من الزنوج على السفن التى كانت تقلهم إلى العبودية فى الولايات المتحدة.. والهولوكوست الصينى وممارسات الاحتلال اليابانى للصين.. ولكن عندما تريد آلة الإعلام شيئا.. فإن العالم كله يلغى عقله ويستجيب!

وصلنا إلى بوابة المعسكر.. ووصلت لذروة ضبط المشاعر.. وتجنيب كل الأفكار المسبقة.. اللوحة الحديدية التى تعلو بوابته التى تغطيها الأسلاك الشائكة.. المسافات واسعة فى تلك الأسلاك.. بحيث تمنحك رؤية شديدة الوضوح لما خلفها.. مساحة واسعة جدا من المسطحات الخضراء.. على ربوة عالية.. تحمل نصبا تذكاريا لتخليد «نزلاء» أو ضحايا المعسكر.. تقف أسفلها شواهد قبور الضحايا وثيقة على جنسياتهم.. كل الشواهد تحمل صليبا رخاميا على قاعدة تحمل اسم وتاريخ ميلاد ووفاة كل ضحية.. دلفنا إلى الداخل.. فتفرقت بنا جميعا السبل كل بحسب اختياره.. من أين سيبدأ.. وإلى أين سينتهى.. وقررت أن أبدأ بغرفة الوثائق.. كما يقول الكتيب الدليل الذى تم تزويدنا به فى الأتوبيس.. فهناك قد تكمن أشياء مهمة..

3

دلفت إلى القاعة الرخامية التى تشكل ألوانها خليطا بين الأسود والرمادى.. لونان يوحيان بالتقدير والفخامة.. القاعة مجهزة بأجهزة كومبيوتر متعدد.. تجاورها داخل صندوق زجاجى مفتوح من جانب واحد.. وثائق رسمية قديمة.. أوراقها الصفراء ذات الستين عاما تقريبا.. مغلفة بأغلفة شفافة للحماية.. يمكنك بسهولة إدخال يدك من فتحة الصندوق وتقليب الصفحات بحسب رغبتك.. فتطلع على أسماء الذين دخلوا المعسكر.. وكيف خرجوا منه.. إذا خرجوا.. وتواريخ ميلادهم.. وأماكن سكنهم.. وديانتهم.. وأوصافهم.. الكومبيوتر الذى تتعامل معه باللمس.. يضم صورا شخصية إضافة لصور من وثائق الضحايا.. وصور لأماكن سكنهم.. ودون تعمد فكل

من مرت عينى على أسمائهم.. لم يكونوا يهودا لا اسما.. ولا ديانة.. من ألمانيا أو دول أوروبا الشرقية.. مئات الآلاف من الشيوعيين.. وعشرات الآلاف من الشواذ جنسيا.. والبولنديين.. والغجر.. وبالنسبة والتناسب.. عدد ضئيل جدا من الجماعة اليهودية المتطرفة «شهود يهوه».. 1200 شخص.. فى تلك المعسكرات.. التى تعنى ترجمتها الحرفية عن الفرنسية والانجليزية.. معسكرات التكثيف أو التركيز.. لأن أعدادا كبيرة من البشر كان يتم حشرهم داخل رقعة ضئيلة جدا.. ترددت فى الوثائق جملة «أماكن لغير المرغوب فيهم».. المعارضين السياسيين.. بدأت عام 1933.. ووصلت فى نهاية 1939 إلى 6 معسكرات فى ألمانيا.. أضيف إليها أعداد أخرى فى دول أوروبية أثناء الحرب العالمية الثانية.. داخل هذه المعسكرات لم يكن الهدف التعذيب.. كان العمل قسرا.. أو بالسخرة.. فى أعمال يتم توزيعها عليهم دونما اختيار.. وإغفال حقوقهم فى الطعام والعلاج.. والعمل 18 ساعة يوميا.. والتعرض لإجراء تجارب علمية وطبية قسرا أيضا.. فى عام 1941.. أنشئت أنواع أخرى من المعسكرات.. سميت معسكرات الموت.. هدفها القضاء على المعتقلين السياسيين.. ويقال – دونما سند إلى الآن – بواسطة غاز سام أو بالحرق ..

أما ما تم ترويجه.. ولم يرد فى أى من أوراق هذا المعسكر – الذى يشابه فى تفاصيله غيره من معسكرات أوروبا – فهو أن أفران الغاز يتسع الواحد منها لحوالى ألفين و500 شخص.. بعد وصولهم تتم عملية فرز أولية.. فيتم اختيار بعضهم لإجراء تجارب طبية وعلمية عليهم.. وبعضهم الآخر يساقون تحت وهم الاستحمام..ويقال أن النازيين قد أوصلوا أنابيب الاستحمام بمصادر الغاز السيانيد.. وهو مبيد للحشرات والآفات الزراعية.. وبعد موتهم تساق

جثثهم إلى المحارق بنفس المبنى!! كلام لو حكيته لابنتى وقت أن كانت فى الثالثة من عمرها.. لأدارت لى ظهرها دونما إجابة.. مكتفية بالصمت عقابا لى على عدم احترام عقلها!! ناهيك عن عدم وجود أى دليل أو إثبات من أى نوع على قصص كهذه.. سوى أنها قصص يرد عليها بأخرى!

4

شاهدت فى قاعة أخرى.. فيلما تسجيليا بتعليق صوتى مميز.. يبدأ بالفرنسية ثم الإنجليزية ثم الألمانية.. على صور فوتوغرافية لأعداد ضخمة من المعتقلين.. من الرجال والنساء.. أثناء ترحيلهم فى قطارات أو شاحنات إلى المعسكرات.. وصور لهم داخل المعسكرات.. وصور للمحارق والأعمال التى أجبروا على القيام بها.. ليس أكثر من ذلك.. ما تشاهده وتتأثر به.. تلك الهياكل العظمية.. التى تعمل طويلا.. ولا تأكل سوى الفتات.. وأجسادهم تشى بالكثير من الأمراض أوضحها الأنيميا والسل.. وشارات مختلفة الألوان – رغم الأبيض والأسود – ثم شرح توضيحى صوتى.. فالسجناء كانوا يميزون بألوان شاراتهم المثبتة أعلى ملابسهم.. السوداء للمتشردين وذوى الأصول الهندية والباكستانية والغجر.. والنساء المعتقلات لأسباب أخلاقية.. والشاذات جنسيا.. والخضراء للمجرمين.. والوردية للشاذين جنسيا من الرجال.. والبنفسجية لجماعة «شهود يهوه».. والحمراء للسجناء السياسيين والشيوعيين.. المعسكرات من هذا النوع وصل عددها إلى 47 معسكرا.. 17 فى ألمانيا و 9 فى بولندا و 4 فى النرويج و 2 فى كل من هولندا، إستونيا، إيطاليا،

obeikandl.com

فرنسا، 1 فى كل من تشيكوسلوفاكيا، لاتفيا، النمسا، بيلاروس، أوكرانيا، لتوانيا، بلجيكا، وجزر الشانيل بين فرنسا والمملكة المتحدة.. وأكبرها كان معسكر «أوشفيتز» فى بولندا.. الذى راح ضحيته مايقرب المليون ونصف من «غير المرغوب فيهم».. لذا ففرنسا.. تغسل يدها بفتح هذا المعسكر للعامة.. لأنه الباقى من معسكرين ضمن هذا العدد الضخم.. «حتى لا يحدث مرة ثانية»! أما غرف الاعتقال.. فكانت مبطنة الأرضية بالباركية.. الذى لم يحدث له أى ترميم منذ 60 عاما.. وذات نوافذ كبيرة الحجم فى منتصف جران الغرفة.. وهى مشاهد تفتقر إليها سجون فى بلدان كثيرة فى العالم الآن..

5

توقفت طويلا فى الساحة المزروعة أسفل التلة الخضراء.. والتى تضم مقابر ضحايا المعسكر.. لفت نظرى ذاك الصليب الضخم المرسوم فى أرض مزروعة.. بالورود الحمراء.. وعدت أسائل نفسى مرة أخرى عن «هولوكوست» اليهود.. تلك التجارة الرابحة دوما طوال 60 عاما.. أول كتاب نشر حول إنكار حدوث «الهولوكوست» كان عام 1962.. حمل عنوان «الحكم المطلق» للمحامى الأمريكى «فرانس باركر يوكى».. وكان أحد الذين أوكل إليهم عام 1946 مهمة إعادة النظر فى محاكم «نورنبرج» الشهيرة.. بدا حينها ممتعضا جدا مما وصفه «بانعدام النزاهة» فى جلسات المحاكمات.. كان شديد الانتقاد باستمرار.. فتم طرده من منصبه بعد عدة أشهر فى نوفمبر 1946..

obeikandi.com

وفى عام 1953 قابل الرئيس السابق جمال عبد الناصر.. وعمل لفترة فى وزارة الأعلام المصرية وكانت كتاباته معادية دائما لدولة إسرائيل.. ثم سار على دربه «هارى أيلمر بارنيس» وهو أحد المؤرخين المشهورين وكان أكاديميا بجامعة كولومبيا فى نيويورك.. فى التشكيك بالهولوكوست.. ثم تلاهما.. المؤرخين «جيمس مارتن» و «ويلس كارتو « وكلاهما أمريكيان.. وفى الستينيات قام المؤرخ الفرنسى «بول راسنير» بنشر كتابه «دراما اليهود الأوروبيين».. المثير أنه كان مسجونا فى المعتقلات الألمانية.. أثناء الحرب العالمية الثانية ولكنه أنكر ما يشاع عن الهولوكوست.. وفى السبعينيات.. نشر «آرثر بوتز» أستاذ الهندسة الكهربائية وعلوم الحاسب الآلى فى جامعة نورث ويسترن الأمريكية بولاية إلينوى كتابا باسم «أكذوبة القرن العشرين» أنكر فيه الهولوكوست وقال أنها مزاعم كان الغرض منها إنشاء دولة إسرائيل! وعام 1976 نشر المؤرخ البريطانى «ديفد أرفنك».. الذى حوكم بالسجن 3 سنوات من محكمة نمساوية عام 2006.. لإنكاره للهولوكوست كتابه «حرب هتلر».. وفى 1974 قام الصحفى الكندى من أصل بريطانى «ريتشارد فيرال» بنشر كتابه «أحقا مات 6 ملايين ؟» استبعد بسببه من كندا عام 1992.. كل هذه الكتب التى تنكر الهولوكوست.. لكتاب بريطانيين تذكرتهم وأنا فى وقفتى هذه أمام مقابر الذين ذهبوا.. وذهبت معهم الحقيقة!

6

إبادة 6 ملايين يهودى رقم مبالغ به كثيرا.. بحسب آراء هؤلاء الأوروبيين التى تريد حكوماتهم غسل أيديها من كل شىء.. واستنادا إلى إحصاءات أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية.. فالعدد الإجمالى ليهود أوروبا كان 6 ملايين ونصف المليون.. وهذا يعنى أن الهولوكوست قضت على اليهود فى أوروبا كلهم.. بينما تشير دوائر الهجرة الأوروبية إلى أنه بين 1933 و 1945 هاجر مليون ونصف يهودى إلى بريطانيا، السويد، إسبانيا، أستراليا، الصين، الهند، فلسطين والولايات المتحدة! وتشير أرقام أخرى إلى أن أكثر من 2 مليون يهودى هاجروا إلى الاتحاد السوفيتى! بينما تشير ثالثة إلى أن السجناء اليهود فى المعتقلات النازية لم يزد عددهم عن 20،000. فالعدد الإجمالى ليهود العالم عام 1938 كانت 16 مليون ونصف المليون.. وفى عام 1948 كان 18 مليون ونصف المليون.. فإذا أبيد 6 ملايين.. فإن الملايين العشر الباقية يستحيل أن تتكاثر بهذه النسبة الضخمة التى تنافى قوانين الإحصاء والنمو البشرى لتصبح 18 مليونا بعد عشر سنوات!

وتنفى كل هذه الدراسات على الإطلاق.. ماسمى بمستودعات الغاز لقتل اليهود.. وإنما غرف صغيرة لتصنيع مبيدات الحشرات والآفات الزراعية.. أما المحارق فكانت لحرق جثث الموتى الذين ماتوا جراء التيفوئيد فى السنوات الأخيرة من الحرب.. لنقص الخدمات الطبية وانهيار البنية التحتية الألمانية فى

سنوات الحرب.. ويصبح من اللهو أن تنفق ألمانيا كل الوقود والطاقة التى كانت بأمس الحاجة إليها فى الحرب لإحراق ملايين الأشخاص!

7

الصور الأرشيفية التى شاهدتها.. والفيلم التسجيلى الذى تابعته 4 مرات متتابعة.. هى نفسها التى عرضت على العالم.. وفى محاكم «نورنبرج».. مأخوذة من الأرشيف الألمانى نفسه.. فى محاولة من الحكومة لعرض تفشى المجاعة ومرض التيفوئيد فى ألمانيا وقتها.. تم استخدامها فى تلك المحاكمات على أنها إبادة جماعية لليهود.. صور للقصف المثير للجدل الذى قامت به الطائرات الحربية لدول الحلفاء لمدينة «دريسدن» الألمانية بين 13 فبراير و 15 فبراير 1945.. حيث ألقيت حوالى 9 آلاف طن من القنابل عل تلك المدينة.. وتم تدمير 24 ألفا و866 منزلا و 72 مدرسة و 22 مستشفى و 18 كنيسة و 5 مسارح و 50 مصرفا و 61 فندقا و 31 مركزا تجاريا.. ويقال أنه راح ضحيتها بين 25 و35 ألف مدنيا..

المذهل حقا بالنسبة لى.. أن هناك عربا راحوا ضحية تلك المعسكرات أيضا.. لا يأتى ذكرهم أبدا.. حتى فى إطار محاولات أوروبا «عدم حدوث ذلك ثانية»! ليس هناك إحصاء بعددهم.. لكن الباحث فى وثائق وسجلات تلك المعتقلات.. سوف يجد أسماء عربية صنفت كتابعة لدول: فرنسا وإيطاليا وأسبانيا.. وكان معظمهم من دول شمال إفريقيا.. وهناك بعض الوثائق فى هذه المعسكرات تثبت وجود نساء يحملن أسماء عربية.. وهن زوجات

فرنسيات لمهاجرين عرب.. وبعضهم كانوا أسرى حرب خدموا فى الجيش الفرنسى المهزوم.. هؤلاء ومصيرهم وماحدث لهم.. لم يجدوا لأنفسهم مكانا فى الذاكرة الجماعية لا لأوروبا.. ولا للبشرية كلها.. حتى مواطنيهم! جرت عمليات اعتقالهم منذ عام 1943 فى فرنسا من قبل الشرطة.. والنمسا وكولونيا وفرانكفورت وبروكسل وتونس.. منهم من قاتل فى صفوف الجمهوريين فى الحرب الأهلية الأسبانية.. وصنفوا كشيوعيين.. ومنهم من انتهكوا قوانين العمل.. فألزموا على السخرة.. جرى تسجيل ٪95 منهم على أنهم فرنسيين.. يحملون الإشارة «إف» الحرف الأول لفرنسا..

8

«حتى لا يحدث ثانية».. كلمة سحرية.. لكنه سيحدث.. لأن ليس كل شىء يمكن غسله بكلمات سحرية.. أوروبا كلها متورطة حتى الآن فيما هو أكثر من معسكرات النازى.. تلك المعسكرات التى حرصت أوروبا كلها على إلصاقها بهتلر وحده.. كل أوروبا كانت ضليعة فى انتهاك حقوق البشر.. وكل أوروبا مدينة لهتلر بالاعتراف بالمسئولية كاملة معه.. أما تجار «الهولوكوست».. فالحقيقة التى نجحوا فى إخفائها بغطاء محكم من «حتى لا يحدث ثانية».. تنكشف طوال الوقت دون أن يشعروا.. لتبدو جلية واضحة للعيان.. فقد نجحوا فى شىء واحد فقط.. أن يخبئون عيونهم بأكفهم فلا يرونها.. ويعتقدون خطأ أنهم دفنوها.. وتلك هى الدنيا!

obeikandl.com